مجلة المنتدى الأكاديمي (العلوم الإنسانية)
المجلد (9) العدد (1) 2025
ISSN (Print): 2710-446x ISSN (Online): 2710-4478
تاريخ التقديم: 2024/10/23، تاريخ إرسال التعديلات: 2025/01/20، تاريخ النشر: 2025/01/27

توظيف الموروث في شعر مصطفى بن زكري

محمد فرج علي فرحات

قسم اللغة العربية، كلية الآداب، الجامعة الأسمرية الإسلامية، ليبيا
Farh.68.m@gmail.com

المستخلص

تتناول هذه الدراسة ظاهِرة التّناص في الأدب العربي وموقف النّقاد العرب منها، ومدى شُيوع هذه الظاهرة في الشّعر الليبي، مع استعراض بعض النّماذج الشعرية التي تدلّ على استحضار الشعراء للتراث الديني والأدبي في نتاجهم الشِّعْري.

وقد أجمع النّقاد على أنّ التّناص ظاهرةٌ حديثةٌ قديمة، فقد عرف القُدماء هذه الظاهرة ومارسوها في أشعارهم، ‘وكذلك تناولها النّقاد في دراساتهم إلا أنهم لم يُطلقوا عليها مُسمّى " تناص" ، وإنّما تناولوها تحت مُسمَّيات أُخرى أبرزها: الانتحال، والسرقة، وتوارد الخواطر، وغيرها من المُسميات التي تدلّ على تداخل النّصوص بعضها ببعض، واستحضار الشعراء لبعض النصوص والآثار القديمة في أشعارهم.

والشعراء الليبيون كغيرهم من الشعراء شاعتْ في أشعارهم العديد من صور التناص وخاصة التناص الديني وذلك بحُكم الثقافة الدينية التي شاعت في المجتمع الليبي، ومن أبرزهم الشاعر مصطفى بن زِكري.

الكلمات المفتاحية :التّناص، النّقاد، التراث، الأدب الليبي، السرقات.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، أقدم هذا البحث الذي يتناول ظاهرة التناص في الشعر الليبي ومدي استخدام الشعراء الليبيين لهذا الأسلوب في أشعارهم، وهو من أهم الموضوعات التي يجب أن يتجه إليها الباحثون للتعريف بالشعر الليبي وللوقوف على القدرات الشعرية التي امتلكها الشعراء الليبيون، أتمنى من الله التوفيق والقبول.

إشكالية الدراسة:

تتبّع ظاهرة التناص في ديوان الشاعر بن زِكري، ودراستها دراسة تبيّن أبرز أنواع التناص التي وظّفها الشاعر في قصائده للتعبير عن أفكاره وآرائه، وإبراز معاناته الشعرية.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث في التعريف بأهم الأساليب التي لجأ إليها الشعراء في نظم الشعر، المنهج الاستقرائي للوصول بأفكارهم وأحاسيسهم إلى المتلقي، وقد اتبعت الذي يعتمد على استقراء أشعار الشعراء الذين تمّ اختيارهم نموذجا لهذه الدراسة.

مشكلة الدراسة:

الشعر الليبي ثري بالعديد من الأساليب التعبيرية التي يلجأ إليها الشعراء عادة للتعبير عن آرائهم ومعتقداتهم، فهل كان لهم اهتمام باستحضار النصوص القديمة في أشعارهم كغيرهم من الشعراء؟ وهل لجأوا إلى الاستعانة بالتراث القديم في التعبير عن لأفكارهم؟

أهداف الدراسة:

تهدف هذه الدراسة إلى معرفة الأساليب التي اتبعها الشعراء الليبيون في نظم الأشعار، وهل كان لهم إلمام بأسلوب التناص ومدى ممارستهم له في قصائدهم.

الدراسات السابقة ذات الصلة:

أهمها رسالة ماجستير بعنوان (الديوان المخطوط للشيخ محمد الهادي انديشة دراسة وتحقيقا) مقدمة من الباحث مسعود مفتاح الحاج عبد السلام، إشراف الدكتور / محمد كريم الكواز – 2009م.

الإطار النظري:

الشاعر مصطفى بن زكري[1]:- (علي المصراتي،1982، ص 5)

1- بتصرُّف عن كتاب ديوان مصطفى بن زكري، تحقيق على مصطفى المصراتي، دار لبنان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1892، ص 5 وما بعدها.

هو الشاعر الذي قال عنه الأديب علي مصطفى المصراتي: " ليس من أصحاب النفس الطويل في الأوزان والاسترسال، نشأ في بيئة محافظة في محيط تقليدي ذي رواسب فكرية وتقاليد موروثة" (علي المصراتي، 1982).

وُلِد بمدينة طرابلس سنة 1853 م، عاصر فترة الولاية العثمانية على البلاد والمرحلة التالية لها والمتمثلة في الصراع الغربي وأطماع الدول الأجنبية فيها. هذه الفترة التي تعرّضت فيها البلاد إلى انغلاق ثقافي كبير ولم يكن هناك أي نشاط ثقافي إلا ما كانت تجود به بعض المنابر العلمية والثقافية في البلاد المجاورة لليبيا أهمها الأزهر الريف في مصر، والزيتونة في تونس، والقرويين في فاس. وكذلك بعض المنارات والزوايا الدينية الموجودة في البلاد أشهرها زاوية عبد السلام الأسمر بزليتن، وزاوية الزروق بمصراته.

طالع ابن زكري الكتب القديمة كالأغاني لأبي فرج الأصفهاني، والأمالي لأبي علي القالي، وكتب الجاحظ، وشعر المعلقات، ويظهر ذلك جلياً في أشعاره " فقد نهل من مدرسة الأندلس، وشعراء العصر العباسي، وشعراء الغزل الرقيق وشعر التواشيح والغناء الجميل ...". (علي المصراتي،1982).

درس ابن زكري في مدرسة أحمد باشا على يدِ أساتذة أجلّاء لعل من أبرزهم الفقيه محمد كامل بن مصطفى أحد خريجيّ الأزهر الشريف. كما ألمّ الشاعر بعلوم اللغة والنحو، ودرس اللغة التركية التي كانت اللغة الرسمية للدواوين الإدارية وهي أيضاً لغة الحاكم، مما سهّل عليه الاطلاع على الشعر التركي والقراءة للعديد من الشعراء الأتراك أمثال نامق كمال.

أُختير لعضوية مجلس إدارة طرابلس، ثمّ رئيساً لمكتب الفنون والصنائع الإسلامية الأمر الذي جعل له مكانة بين معاصريه، ومنحه الفرصة للسفر خارج بلاده. قام بِطبْعِ ما جمعَه من أشعاره في ديوان بمصر سنة 1982 م، وقد جاء مشتملا على قصائد عدّة تعدّدت موضوعاتها، فمنها الغزلية والمدحية، ومنها ما جاء مطبوعا بالطابع الديني الإرشادي. كما خاض الشاعر مضمار التشطير والتخميس ذلك الفن الذي كان شائعاً في عصره.

التعريف بالديوان:

جاء ديوان بن زكري مشتملا على العديد من الموضوعات على عادة من سبقوه من الشعراء، وكان لثقافته الدينية واللغوية أثر واضح فيه، بحيث نقف على العديد من الاقتباسات وخاصة من الكتاب والسنة، كما حوى هذا الديوان قصائد نظمها الشاعر أودع فيها موضوعات عدّة منها اللغوية والصرفية.

كان الشاعر عفّ اللسان فلا وجود للهجاء في ديوانه، " فقد كان ذمت الأخلاق، له صلاته الطيبة مع الناس بعيداً كل البعد عن اللجاجات والخصومات الدّافعة إلى شعر الهجو والمثالب ".(علي المصراتي،

1982م)، كما تكلم في الوصف والغزل، والمدح بأسلوب يُظهر تقليده لشعراء العصر العباسي من خلال قوة الذيباجة والأسلوب، وشعراء العصر الأندلسي في رقة الألفاظ وعذوبتها. كما جاء في الديوان الشعر الديني وبعض المدائح الصوفية، وأشعار المناسبات والإشادة ببعض الإنجازات.

ويُعدّ ديوان بن زكري أول ديوان يُطبع في ليبيا، وقد اتّبع الشاعر في ترتيبه لقائده على وحدة الإيقاع الفني والجرس الموسيقي، كما أهمل الترتيب الزمني لقصائده.

كان الشاعر حريصا على إسماع جلسائه ما تجود به قريحته، وفي كثير من الأحيان كان أصدقاؤه يأخذون منه ما نظم من أشعار السبب الذي أدّى إلى ضياع الكثير من أشعاره وخاصة أنه كان لا ينشر ما ينظم من أشعار على صفحات الجرائد إلا نادرا. ويؤكد ذلك الأديب علي مصطفى المصراتي بقوله: " لو حافظ الشاعر ابن زكري على قصائده بالنشر في الصحف لاستطعنا العثور على أشياء أخرى، ولكنه اكتفى بحفظه وتقييده في جزازات وأوراق صغيرة وأحياناً بقلم الرصاص الذي يبهت مع الزمن". (علي المصراتي ، 1982م).

وبتتبع ديوان الشاعر نراه حافلاً بالعديد من الاقتباسات الدينية والأدبية، وإن كان أكثر احتفالاً بالاقتباس من القرآن الكريم، وجاءت تلك الاقتباسات دون تكلّف أو إجهاد، وتمثّلت بتضمين بعض القصائد للألفاظ وآيات من الذكر الحكيم، أو بالإشارة إلى معنى آية من آياته.

ونراه يستعير بعض أسماء سُورِ القرآن ويوظفها في أشعاره ليوضح المعنى الذي بصدد الحديث عنه، كما وظّف الشاعر قواعد النحو والصرف في نظم أشعاره فجاءت مُعبّرة متمشية مع سياق حديثه. كما نلاحظ افتتاح الشاعر لمطالع قصائده بالنسيب على عادة الشعراء الأقدمين ولكونه منتهجاً لطريقة روّاد المدرسة التقليدية وفي مقدمتهم محمود سامي البارودي، وخاصة تلك التي قالها في مدحِ بعض رجالات أهل العلم والأدب في عصره.

طُبع ديوان الشاعر سنة 1892 – 1310 هـ، وأشاد به بعض علماء عصره من خريجي الأزهر الشريف بكلمات منظومة معبّرة على القيمة الفنية والعلمية لهذا الديوان، قال الشيخ عبد الله المغراوي المصراتي: (علي المصراتي، 1982م، ص 50).

مُذ لاح ديوان ابن زكري رافلاً أزهى به روض القريض وأترعا

أكرم به من فاضــل فيــراعه من وشيه الآداب أضحت شُرّعا

قال عنه الشيخ محمد أحمد الطرابلسي:

إذا ما مصطفى للمجد ربعٌ ففي الآداب بحرٌ أي بحر

وذا ديوانــه ناهيـك فيها كذاك البحر يلفظ كلَّ در

وقال عنه الشيخ سالم بن المبروك الورشفاني:

جدير الفضل ديوان ابن زكري فريد أوانه الشهم اللبيب

لـقد راقـتْ قـوافـيهِ ورقّــتْ وغازلتْ النسيم به النسيبا

كما أشاد بهذا الديوان أدباء وشعراء الجيل الذي جاء بعده وأبرزهم الشاعر أحمد الشارف وأحمد رفيق المهدوي الذي خصّه بمقالة نشرها سنة 1937م أشاد فيها بشاعريته ومقدرته على التصوير.

الأثر الديني والأدبي في شعر مصطفى بن زكري:

القرآن الكريم كلام الله الذي أنزله على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، الكتاب المعجز الذي أبهر العالمين بفصاحته وبلاغته، والذي عجز عن تحديه جهابذة العرب وهم أهل الفصاحة والبلاغة، على الرغم من منحهم الفرصة في التعاون فيما بينهم ومع غيرهم من الجن قال تعالى: " قل لإن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ". وهو المصدر الذي اتكأ عليه الشعراء واقتبسوا من ألفاظه ومعانيه ليعبروا عن قضاياهم الإنسانية والاجتماعية ...الخ.

وإذا ما تأملنا الشعر الليبي الحديث نتبيّن ما أسلفنا ذكره، بحيث نقف على العديد من الأشعار التي يظهر فيها اعتماد أصحابها على ذلك الموروث بمختلف أصنافه. وقد تباين الشعراء الليبيون في طُرق استلهامهم للتراث، فمنهم من اتكأ على الديني منه، ومنهم من جمع بين الديني والأدبي. ففي منتصف القرن التاسع عشر أطلّ على الحياة أحدُ الشعراء الذين كان لهم نتاج شعري تميّز بأسلوبه السهل البعيد عن الغرابة والحوشية، كما دلّ على سعة الثقافة التي ألم بها الشاعر.

فعلى الرغم من صعوبة المرحلة التي تمرّ بها ليبيا في ذلك الوقت فهي الفترة التي انتقلت فيها البلاد من الولاية العثمانية إلى بلاد تتربص بها أطماع الدول الأجنبية، فقد كان المناخ لا يشجع على الدراسة والبحث ومنابع الثقافة محدودة تمثّلت في بعض مدارس التعليم الديني المرتبطة ببعض الزوايا والمعاهد. في هذه الظروف استطاع نفرٌ من الشعراء النهوض بالشعر في البلاد في مقدمتهم مصطفى بن زكري وأحمد الشارف وأحمد رفيق المهدوي.

الأثر الديني في ديوان الشاعر:

تمثل اقتباس بن زكري من القرآن الكريم في استعارة بعض ألفاظه ومعانيه، وأيضاً تضمين بعض نصوصه. وبتتبّع صفحات الديوان نقف على بعض هذه الاقتباسات.

الاقتباس اللفظي:

في قصيدة (يا نبيّ الجمال) يستحضر الشاعر العديد من الألفاظ والمعاني ليضفي على فكرته شيئاً من القوة والوضوح.

يقول الشاعر: (علي المصراتي، 1982، ص63).

يا نبي الجمال ... أصبح دمعي مُرسلاً في هواك بالبينات

يُنذر العاشقين ناراً تلظّى في فؤادي وقودها عبراتي

ويقول: (علي المصراتي،1982، ص64).

عبس الصبر مُعرضاً وتولى منذ عاملتني بحسن التفات

وقوله أيضاً: (علي المصراتي،1982، ص65)

واتل آي الغرام واصدع بما يأ مرك الحب في بديع الصفات

ففي البيتين الأولين يصور الشاعر دموعه وكأنها رسول جاء بالآيات ليُنذر أهل الغرام بنار تلظّى في القلوب بسبب ذلك العشق وقد وظف معنى قوله تعال: " فأنذرتكم ناراً تلظّى لا يصلاها إلا الأشقى. ".

وفي البيت الثاني يضمّن الشاعر لفظتيّ (عبس وتولى) ليعبّر عن حالة الجزع وعدم الصبر التي آل إليها، إشارة إلى قوله تعالى: " عبس وتولى أن جاءه الأعمى.. ".

وفي البيت الثالث يستحضر الشاعر قوله تعالى: " فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ". ليؤكّد على تحفيز العاشق بالبوح بما يحسّ به.

وفي قصيدة (رؤية القلوب) يستحضر الشاعر قوله تعالى: " وجنى الجنتين دان ... " ليعبّر عن جمال محبوبته التي حازت من الصفات أكملها، إلا أن ثمارها لم تكن سهلة المنال.

يقول: (علي المصراتي،1982، ص69).

وجنى الجنتين من وجنتيه يانع غير أنه غير دان

ومثل هذا التضمين نقف عليه في قصيدة (براعة المحاسن) حيث يوظّف الشاعر بعضاً من ألفاظ سور " النجم "، فنجذ لفظة (آيه الكبرى)، (زاغ البصر)، يقول: (علي المصراتي،1982، ص66)

واحفظ حديث الحسن عمن قد رأي من آيه الكبرى وما زاغ البصر

والحسن لا تسع العبارة وصفه وتطاول الشعراء فيه من القصر

فقد استعار الشاعر هذه الألفاظ من قوله تعالى: " ما زاغ البصر وما طغى لقد رأي من آيات ربّه الكبرى".

وفي بعض المواضع نجذ استعارة الشاعر أسماء بعض سور القرآن الكريم ليوضح فكرته، ففي قصيدة (بدر زائر) يوظّف الشاعر اسم سورة (الضحى) ليعبّر عن إشراق غرّة الحبيب وضيائه، واسم سورة (تبارك) ليعبّر عن بهائه وجماله فتبارك الله من صوّرَه، يقول:(علي المصراتي،1982، ص 105)

وافاك بـدرك زائراً لمّا أثار الشوق نـارَك

وافاك مبتسـماً فيـو مك ذلك اليوم المبارك

يتلو بغُرّته الضـحا ء ووجهه تلـو تبـارك

وفي قصيدة (سكرى) يضمّن الشاعر أحد أبياتها تعبيراً قرآنيا ليدلّل على افتتان الناس بمحبوبته كلما أطلت بوجهها الصبوح، يقول [1]:

فترى الناس سُكارى كلما أسفرت فوق شقيق اللعس

مأخوذ من قوله تعالى: " وترى الناس سُكارى وما هم بسكارى .... "[2].

ومن توظيف معان آيات الذكر الحكيم قوله :(علي مصطفى المصراتي،1982، ص128).

لا بـرء من لسعة الفـراق ولو أتوني بألف راقـي

وكيف يرجو الشفاء صبٌّ يحس بالروح في التراقي

وهو توظيف لمعنى قوله تعالى: " حتى إذا بلغت التراقي وقيل من راق "[3].

1-المصدر نفسه، ص 106.

2-سورة الحج، الآية 2.

3-سورة القيامة، الآية 26،25.

ومن الاقتباسات القرآنية ما نراه في قصيدة (عِظة النفس) حيث ذكر أن المال والبنون توهب للمرء فتنةً وابتلاء وهو تضمين لقوله تعالى: " واعلموا أنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجرٌ عظيم ". يقول الشاعر:

إنما المال والبنون علـــى حبهمـا فتنة لنـا وابتـلاء

لا يغرّنّك الغَرور ولا يغ ريك من كيد دهرك الإغفاء

وفي ذات القصيدة يقول الشاعر:(علي المصراتي،1982، ص152)

وتزود من الحياة وخير الـ زاد في شدّة الميعاد التقاء

إشارة إلى قوله تعالى: " وتزوّدوا فإن خير الزّاد التقوى واتقوني يا أولي الألباب "[1].

ويقول أيضاً:(علي المصراتي،1982، ص 152).

أقبل اليسرُ يقتفي أثر العسـ ر وللكرب شدّةٌ ورخاء

إشارة إلى قوله تعالى: " إن مع العُسر يسرا إنّ مع العُسرِ يسرا "[2].

وفي بعض المواضع يستحضر الشاعر بعضاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم وخاصة ما كان متمشياً مع فكرته، يقول في القصيدة نفسها:

واثق الله حيثما كنت فاللـ ـه رقيب إن غابت الرقباء

وهو تضمين لقول النبي صلى الله عليه وسلم: " اتق الله حيثما كنت فإن لم تكن تراه فإنّه يراك "

وقد جاءت قصيدة (عِظة النفس) (علي المصراتي،1982، ص154) حافلةً بالعديد من الاقتباسات ومشتملة على العديد من المضامين القرآنية، وسأحاول إيراد أبياتها متبوعة بتوضيح تلك المضامين. يقول الشاعر:

عالم الغيب والشهادة هل تغـ رب عن عِلم ربك الأشياء

1-سورة البقرة، الآية 196.

2-سورة الشرح، الآية 5 ، 6.

يضمّن الشاعر في هذا البيت قولَه تعالى: " عالم الغيب لا يعزُب عنه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض ..."[1]

ودع الظلـم إنـه ظلمـات بئس مثوى للظالمين لظـا

وفي هذا البيت تضمين لقول النبيّ صلى الله عليه وسلم: " اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة".

يوم لا يُظلمـون شيئاً وتُجزَى كل نفسٍ وتشهد الأعضاء

اشتمل هذا البيت على عدّة إشارات، ففي قوله : لا يظلمون شيئاً إشارة إلى قوله تعالى:" فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون شيئاً ... "[2].

وفي قوله: (وتجزى كل نفسٍ) إشارة إلى قوله تعالى: " اليوم تُجزى كل نفس بما كسبت... " [3]. وأما قوله: (وتشهد الأعضاء) فهو إشارة إلى قوله تعالى: "يوم تشهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون"[4] .

يوم لا ينفـع التكـاثر والمـا ل ولا تنتمي لك الأبنـاء

وفي هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى: " يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم " [5].

يوم تُبلى سرائر المرء لا يخـ فى على الله عدها والخطاء

وفي هذا البيت إشارة إلى قوله تعالى: " يوم تُبلى السرائر فما له من قوة ولا ناصر "[6].

يوم تُطوى السماء والحاكم العد ل وتأبى الشفاعة الشفعاء

وهنا إشارة إلى قوله تعالى: " يوم نطوي السماء كطي السّجلّ للكتب ... "[7].

1-سورة سبأ، الآية 2.
2-سورة مريم، الآية 59.
3-سورة غافر، الآية 16.
4-سورة النور، الآية 24.
5-سورة الشعراء، الآية 88،89.
6-سورة الطارق، الآية 9 , 10 .
7-سورة الأنبياء، الآية 103.

تلكم الجنـة التـي وعـد اللـ ـه لتسعى وتسعد الأتقياء

وهنا إشارة إلى قوله تعالى: " مثلُ الجنة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار..."[1].

جنة عرضها السموات والأر ض ورزق لا يعتريه فناء

ويشير في هذا البيت إلى قوله تعالى: " وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السماوات والأرض ... "[2].

ويمكن القول أن موضوع هذه القصيدة وهو في النصح والإرشاد فرض على الشاعر أن يلجأ لهذه المضامين القرآنية حتى يُضفي عليها شيئاً من القدسية بحيث يكون لها أثراً في نفس المتلقي.

وفي قصيدته التي نظمها بمناسبة انتصار الأتراك على اليونان عدّة اقتباسات دينية، ففي أحد أبياتها يضمِّن قول النبي صلى الله عليه وسلم حيث يقول:

وحسبتم أن لا يُدا ن المستدين بما يُدين

فقد ضمّن قول النبي صلى الله عليه وسلم: " افعل ما شئت كما تُدين تُدان ".

ومن توظيفه لأقوال النبي صلى الله عليه وسلم قوله (علي المصراتي،1982، ص183):

كما تدين في الورى تُدان ومن أهان غيره يُهان

فقد استحضر قوله صلى الله عليه وسلم: " البرّ لا يبلى، والذنبُ لا يُنسى، والديان لا يموت، افعل ما شئت كما تُدين تُدان ". وقوله:

فترى جميع أمورهم شورى تسرُّ المسلمين

وهذا تضمين لقول الله تعالى: " وأمرهم شورى بينهم ".

وقوله:

وجنودكم أمست " بتر ناوة " حصيداً خامدين

1-سورة الرعد، الاية 36.

2-سورة آل عمران، الآية 133.

فقد اقتبس لفظتي (حصيداً خامدين) من قوله تعالى: " فما زالت تلك دعواهم حتى جعلناهم حصيداً خامدين "[1]. وقد اتفق مع المعنى الذي ورد في الآية، فهو يتحدث عن جحافل اليونان التي الذين لحقت بهم الهزيمة، وهو المعنى ذاته المراد في الآية الكريمة فقد حصد الظالمين بكفرهم كما يُحصد الزرع، وأهلكهم وأطفأ شرارتهم كما تُطفأ النارُ فتصير خامدة.

وقوله:

من كلّ حدب ينسلو ن لنصركم متطوعين

فقد وظّف قوله تعالى: " حتى إذا فُتحت ياجوج وماجوج وهم من كلّ حدب ينسلون "[2] .

وفي ذات القصيدة مجموعة من الاقتباسات القرآنية استحضرها الشاعر لتوضيح فكرته، استمع إليه يقول: (علي المصراتي،(1982، ص 178):

يستبشرون بنعمة والفضل والنصر المبين

حقٌّ على المولى وقد نصروه نصر المؤمنين

طعنوا وما وهنوا ولم يدعوا إلى السلم المهين

فقد ضمّن الشاعر في هذه الأبيات نصوصاً قرآنية في صورة تركيب، ففي البيت الأول اقتبس قوله تعالى: " يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين "[3].

والمعنى الذي أراده الشاعر لا يبعد عن المعنى القرآني فهو يتحدث عن النصر الذي منَّ الله به على جنده وهزيمتهم لأعدائهم، وهو لا يبعد عن المعنى الذي ورد في الآية الكريمة حيث ذكرت أن من يُقتل مجاهداً في سبيل الله أحياءٌ عند ربهم فرحين بما حباهم الله من الثواب والجزاء العظيم.

وفي البيت الثاني تضمين لقوله تعالى: " وكان حقاً علينا نصر المؤمنين ".

وفي البيت الثالث تضمين لقوله تعالى: " فلا تهنوا وتدعوا إلى السّلم وأنتم الأعلون والله معكم ... ". وكلّ هذه المضامين متفقة مع المعاني القرآنية.

1-سورة الأنبياء، الآية 15.

2-سورة الأنبياء، الآية 94.

3-سورة آل عمران، الآية 171.

الأثر الأدبي في ديوان الشاعر:

باستقراء ديوان ابن زكري أول ما يلاحظ قلّة استحضاره للنصوص الشعرية القديمة في شعره مُقارنة بغيرها من النصوص، لعل ذلك راجعٌ إلى ثقافته الدينية، ومع ذلك لا يخلو ديوانه من بعض الاقتباسات لتلك الأشعار.

ففي قصيدة (لا أبوح) يقول (علي المصراتي،1982، ص103):

قالوا أدر ذِكرَ الحبي ب مُدامة ودع الحميا

ولقد دعوت وإنما أسمعت لو ناديت حيا

وهو مأخوذ من قول عمرو بن معد بن يكرب حيث يقول:

لقد أسمعت لو ناديت حيا ولكن لا حياة لمن تنادي

وقيل هو لكُثير عزّة حيث يقول:

يعزُّ عليّ أن نغدو جميعاً وتصبح بعدنا رهناً بوادي

لقد أسمعت لو ناديت حياً ولكن لا حياة لمن تنادي

ويتجلى أيضاً في قوله (علي المصراتي،1982، ص150):

وكم لك أيها الملك المهنى علينا من أيادٍ كلّ آن

أيادٍ لا يقوم بهنّ شكرٌ وشكرٌ لا يقوم به لساني

وهو من آثار قراءاته لشعر أبي الطيب المتنبي حيث يقول:

له أياد علي سابغةٌ أعدُّ منها ولا أُعدّدها

وفي قصيدة (ولو ضحك الشيب) نقف على تعبير شاع استعماله عند شعراء العصر العباسي، فهذا دعبل الخزاعي يبكي على شبابه الذي مضى بعد أن انتشر الشيب في رأسه فيقول (علي المصراتي،1982، ص127):

لا تعجبي يا سلمُ من رجلٍ ضحك المشيب برأسه فبكى

قد كان يضحك في شيبته وأتى المشيبُ فقلّما ضحِكا

فيأخذ هذا التعبير فيقول[1] :

ويا عادلي عنه لا أرعوي ولو كان وجدي به مُحرِقي

ولا زلت مُغرى به مُغرما ولو ضحك الشيب بمفرقـي

وفي قصيدة (عِظة النفس) نقف على تضمين لقول الشاعر الأندلسي أبي البقاء الرندي حيث يقول [2]:

هي الأيام كما شاهدتها دُول من سرّه زمنٌ ساءته أزمان

فيأخذ شاعرنا هذا المعني ويصوغه صياغة قريبة من هذا المعني فيقول:

قلّما باكر الصباح بما سـ رّك إلا وساءك الإمساء

ويقول أيضاً:

وتزود من الحياة وخير الزاد في شدّة المعاد التقاء

وقوله:

لا يسرنّك ابتسام أماني ك ولا تستفزك البأساء

" ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه ... ".

ومن توظيف الشاعر لأقوال من سبقوه ما نجده في القصيدة نفسها حيث يقول:(علي المصراتي،1982، ص182)

والزهد في العلم من الحرمان والمرء بالقلب وباللسان

فقد استحضر قول ذلك الغلام الذي تقدّم لتهنئة عمر بن عبد العزيز بالخلافة وكان حديث السنّ، فقال عمر لينطق من هو أسنُّ منك، فقال الغلام, أصلح الله أمير المؤمنين، إنما المرء بأصغريه قلبه ولسانه".

1-المصدر نفسه، ص 127.

2-المصدر نفسه، ص 151.

وفي موضع آخر من القصيدة نفسها يستحضر الشاعر قول الله تعالى:[1] " إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ... ".

ويتجلى لنا في شعر ابن زكري مظهر آخر من مظاهر التوظيف وهو إدخال بعض الإشارات النحوية والعروضية، التي تنمُّ عن ثقافته وعلمه بأصول اللغة العربية من نحوٍ وعروض.

أفاد ابن زكري من علم النحو في رسمِ صوره، فوظّف النصب والرفع والخفض، بطريقة فنية تخدم الصورة في أشعاره، وفي ذات الوقت توحي المتلقي بثقافته الغنية، من ذلك قوله:(علي المصراتي، 1982، ص 142)

وفي صدره بحرٌ من العلم وافرُ طويل مديدٌ كاملٌ لا يُحدّد

فيا واحد الدنيا مُثناك لم يرد وجمع العلى يقضي بأنك مُفردُ

فممدوح ابن زكري كالبحر في غناه، فقد حوى صدرُه من العلوم أوفرها وأكملها، وقد وظّف مصطلحات العروض للتعبير عن سعة علم صاحبه، فاستحضر أسماء البحور الشعرية كالوافر والطويل والمديد والكامل دون أن يقصد دلالتها العروضية ' بل أراد بها المعنى اللغوي ' فالممدوح علمه وافر طويل، وممتد وكامل بحيث لم يقتصر على علم.

وفي البيت الثاني أفاد الشاعر من تقسيمات علم النحو، فأراد التعبير عن انفراد ممدوحه بتلك الصفات فاستحضر المفرد والمثنى، فصاحبه مفردٌ لا مُثنّى له.

ومثل ذلك قوله (علي المصراتي، 1982، ص 142):

وأمرك ماضٍ ما له من مضارع ومصدره من كلِّ نقصٍ مُجرّدُ

خفضت العِدا وانتصبت لجزمهم وقدرك مرفوعُ البنـاء مُشيَّدُ

أراد التعبير عن مكانة ممدوحه ونفاد أمره فاستحضر لفظة " ماض " التي هي تشير إلى أحد أقسام الفعل، وأراد بها الشاعر مضيّ أمر ممدوحه دون مراجعه.

كما أراد التعبير عن كمال ممدوحه وسلامته من كل منقصة فاستحضر لفظة " مُجرّد " التي هي تشير إلى أحد تقسيمات الفعل أيضاً.

1- سورة النحل، الآية 90.

كما أفاد الشاعر من علامات الإعراب الخفض والنصب والجزم والرفع في بناء صورة ممدوحه، فهو منتصب لجزمِ أعدائه، مرفوع القدر والمكانة.

ويتجلى ذلك أيضاً في قوله: (علي المصراتي،1982، ص130)

وإذا جرى خبر الكرام فلا أرى خبرٌ يصحُّ وفيه غيرُك مبتدأ

عوامل الرفع لا زالت مُصاحبة له ويخفِضُ من عاداهُ عامله

أراد التعبير عن كرم ممدوحه، فلا أحدٌ مُقَدّم عليه فإذا ذُكر أهل الكرم فهو أولهم, وقد عبّر عن ذلك باستحضار لفظتي " خبر – مبتدأ ".

كما أراد الإخبار عن فضائله وكرمِ فعاله التي ضمنت له تلك المكانة الرفيعة فاستحضر لفظة " عوامل الرفع "، وفي الوقت ذاته أراد التعبير عن دنوّ مكانة خصومه وقصورهم عن إدراكه فاستحضر لفظة " يخفض .. عامله ".

وقوله في قصيدة " يا نبي الجمال "(علي المصراتي،1982، ص 64):

كنتُ في الناس ظاهراً فطوى حـ بك جسمي فصار من المضمرات

فقد وظّف الشاعر لفظتي " ظاهراً ' مضمرات " للتعبير عن الحالة التي وصل إليها بعد أن هام عشقاً بمحبوبه.

وقوله:(علي المصراتي، 1982، ص 65)

مفردٌ جلّ في الورى عن مثنى ليته خصّني بجمع شتاتي

خبرُ الحسنِ حيث لم يأت فيه مبتدأ لا يصح عند النحاة

أمره في القلوب ماضٍ ولكن ما له مضارع في الصفات

أراد الشاعر أن يعبّر عن جمال محبوبته وأنه مأسور بها فيسند إليه من الصفات ما يجعلها متميّزة عن غيرها، وقد وظّف في ذلك بعض المصطلحات النحوية، فمحبوبته (مفرد) لا (مثنى) له، وكلما ذُكر الحسن فلابد أن تكون أول من يُذكر، وهي مُتربّعة على عرش الحسن والجمال وكل ما تأمر به ماضٍ.

ومن جميل توظيفه قوله:(علي المصراتي، 1982، ص74):

وانظر إلى شَعر المليح ظفيرةٌ ظُفرت بتقبيل المواطيء والأثر

وكأنهـا ألفٌ بُليت بجرها ما كنت أعهد قبلهـا ألفـاً تُجرّ

حيث شبّهّ ظفيرة محبوبته وكأنها ألفٌ تجرّها وراءها، وقد وظّف في ذلك علامة الجر.

ويتكرر ذِكر هذه الصورة في قوله (علي المصراتي،1982، ص 75):

عبثَ النّسيم بقدّها فتحركت ألفُ الذّؤابة فوق ردفٍ مائل

ما كنتُ أحسب قبل ذلك أن أرى ألفاً يحركـه حـدوث العامـل

هبوب النسيم حرّك خصلات الشعر التي شبّهها الشاعر بالألف المتدلية على الردف المائل، وقد استحضر أثر العامل في معموله متعجباً من حركتها فهذا مُخالفاً لقواعد اللغة.

وقوله:(علي المصراتي، 1982، ص 76)

وانظر لمُختصر الخُصور بدقّةٍ وسلِ الكثيب يريك شرح المختصر

ترى إنما بي من نحول في الهوى فعل وفاعله الضمير المستتر

بيّن الشاعر أثر الهوى عليه، وكيف أصابه النحول، وأن ما به من نحول هو بسبب هجران محبوبته وغيابها عنه، وقد وظّف لفظة (فعل) و (الضمير المستتر).

وقوله: (علي المصراتي، 1982، ص 117)

براني الضنى حتى خفيتُ عن الورى وأمسيت في طيّ الوجود مُقـدّرا

كأنـي ضميـرٌ يستحيـل بـروزُه أُقدَّرُ في الأوهـام شيئـاً ولا أُرى

وأيضاً في هذين البيتين يبيّن أثر الهوى فيه بحيث أصبح لا وجود له بين الناس، يعيش في عُزلة لا وجود له بينهم وكأنه ضميرٌ مُستترٌ لا يمكن ظهوره. ونلاحظ استحضاره لبعض ألفاظ ومصطلحات علم النحو مثل " مُقدّرا – ضميرٌ يستحيل بروزه ".

وخلاصة القول أن الشاعر مصطفى بن زكري من الشعراء الذين اهتموا بالتواصل مع الموروث والديني والأدبي، وقد وظّف ذلك الموروث لخدمة صُوره الشعرية.

النتائج والمناقشة:

1- أن ظاهرة التناص ظاهرة قديمة حديثة مارسها الشعراء قديما بمسميات مختلفة.

2- اختِلاف آراء النّقاد حول هذه الظاهرة، مِنهم مَن نظر إليها على أنّها نوعٌ مِن السّرقة والإغارة، ومنهم مَن عَدّها مِن الأساليب التي يلْجأ إليها الشعراء لِتقْوية أفكارهم ومعانيهم.

3- اختلاف الشعراء في طُرِق توظيف التراث القديم، منهم مَن لجأ إلى التراث الدّيني بِحُكْمِ ثقافته الدينية، ومنهم مَن لجأ التراث الأدبي مُعْتمِداً على محْفوظهِ مِن الشّعر القديم.

4- حِرص الأدباء الليبيون على التّزوّد بالثقافة الدينية وحِفظِ كتاب الله بِحكم البيئة التي نشأ فيها أولئك الشعراء.

5- مصطفى بن زكري من الشعراء الذين وظفوا الموروث الديني والأدبي في شعره، ما يدل على الثقافة الدينية والأدبية التي تمتّع بها الشاعر.

التوصيات:

بعد هذه الرحلة عبر ما نظمه الشاعر مصطفى بن زكري نوصي بالآتي:

1 – الاهتمام بالموروث القديم بأنواعه لما له من أهمية كبيرة.

2 – الاهتمام بالشعراء والتركيز على دراسة الشعر الليبي للوقوف على ما أهم خصائصه.

المصادر والمراجع:

1. ديوان مصطفى بن زكري، تحقيق على مصطفى المصراتي، دار لبنان للطباعة والنشر، الطبعة الأولى، 1892.

Employing Heritage in The Poetry of Mustafa bin Zikri

Mohamed Faraj Farhat

Department of Arabic Language, Faculty of Arts, Al-asmarya Islamic University, Libya

Farh.68.m@gmail.com

Abstract

This study deals with the phenomenon of intertextuality in Arabic literature the position of Arab critics towards it, and the extent of this phenomenon's prevalence in Libyan poetry, while reviewing some poetic models that indicate poets' invocation of the religious and literary heritage in their poeti production Critics have unanimously agreed that intertextuality is a modern and ancient phenomenon. The ancients knew this phenomenon and practiced it in their poetry. Critics also dealt with it in their studies, but they did not call it "intertextuality." Rather, they dealt with it under other names, the most prominent of which are: plagiarism, theft, telepathy, and other names that indicate the interpenetration of texts with one another, and the poets'evocation of some ancient texts and monuments in their poetry.

Libyan poets, like other poets, spread in their poetry many forms of intertextuality, especially religious intertextuality, by virtue of the religious culture that spread in Libyan society, and the most prominent among them ithe poet Mustafa bin Zakri.

Keywords: intertextuality, critics, heritage, Arab, Libyan literature,